إشكاليّة التنشئة في لبنان: تعليم، تعلّم، أم تربية؟

المدخل: خصوصيّة لبنان والتربية

أودّ أن أنطلق في هذه المداخلة من مُسَلَّمة تقضي بأن التنشئة عمليّة متكاملة وأن أية تجزئة لها تنعكس سلبًا على المُنْتَج التربويّ، أيّ الإنسان. لكن الاعتراف بصحّة هذه المقولة لا يعني بالضرورة الوعي لمستلزمات تطبيقها. فالتقانات، على أنواعها، تتحكّم بإجرائيّات العمليّة التعليميّة، أكانت هذه التقانات في وسائل الإيضاح أم في العمل الصفّي. على هذا المستوى، كثيرًا ما تصبح التقانة الإجرائيّة مرجع العمل التربوي، وكأنّها مستقلّة عن أيٍ معطى آخر.

الحقيقة هي أن العمل التربوي، هو دومًا، ومن دون استثناء، عمل مرتبط بوضعيّة إنسانيّة، عامة وخاصّة، والتغاضي عن هذه الحقيقة يجعل من هذه المهمّة عملية تقنيّة، من الطبيعيّ أن لا تصيب هدفها. ففي حلقة دراسيّة كهذه، السؤال الذي أتمنّى أن نسأله لأنفسنا كمربين، وكمخططين تربويين، هو هذا: كيف نقرأ خصوصيّة لبنان لنبني عليها أيّ مشروع تربويّ مستقبليّ؟ بكلمات أخرى: هل أن المقاربة بالكفايات في لبنان، شبيهة بمقاربة مماثلة في فرنسا؟ أو في الصين؟ أو في ساحل العاج؟ هل المنهاج الدراسيّ الذي سيُبْنى عليها، ليس فقط من حيث المحتوى بل من حيث مقوّماته الأخرى، يتأثّر بمعطيات اجتماعيّة، واقتصاديّة، وثقافيّة خاصّة به؟

لا أعتقد أن دراسة تساؤلات كهذه قد تمّت يومًا بشكل ممنهج لنَبْني عليها مستقبل التربية في لبنان. لذلك فمن الطبيعيّ أن تختلط علينا الأمور، وأن يكون موضوع تنشئة أولادنا ضائعًا بين التعامل الفعليّ، وليس النظريّ، مع أفاهيم كالتعليم، والتعلّم، والتربية. من هنا سؤالي الذي أطرحه على ضميرنا كمجتمع تربويّ، وهو سؤال في الأساس: لأيّ مجتمع نخطط، وما هي مسؤوليتنا في الإجابة عن هذا السؤال ؟ وهل الدخول إلى هذا النقاش، في العمق، ممكن من خلال تفصيل كالمقاربة بالكفايات؟

المتعلّم، والنظام التربويّ، والمجتمع

كثيرًا ما يذكر الأدب التربويّ العلاقة بين المتعلّم والمجتمع، ودور النظام التربويّ في تمتين هذه العلاقة. والنظام التربويّ، هو من حيث المبدأ، أنظومة قائمة على التنظيم التربويّ، والبيئة المسؤولة عن تنفيذه، والوضعيات التي تسمح لهذه البيئة بتنفيذ مضامين هذا التنظيم. تتألّف إذًا هذه السلسلة المجتمعيّة، من حلقات متراصّة، يعطّل أيّ خلل في إحداها مفاعيل السلسلة كلِّها. لذلك، فغياب الرؤية الواضحة لعلاقة المنتّج التربويّ (أيّ الإنسان الذي أنشأته المؤسّسة التربويّة) بالمجتمع وتطوّره، وغياب التصوّر لدور البيئة التربويّة في بناء هذه العلاقة، هما غيابان من شأنهما إبطال إنتاجيّة العمليّة التربويّة ككلّ. لذلك، تَعتبر المجتمعات وعن حقّ، أن التخطيط التربويّ شأن سياسيّ بامتياز لأنه في النهاية يهدف خدمة رؤية معيّنة للمجتمع، وللدولة، ولدور الإنسان فيهما.

نحن في لبنان، وضعنا "خطّة النهوض التربويّ"، وهي خطّة طموحة من حيث مبادئها، وأخفقنا بإخراجها إلى حيّز الواقع لأننا لم نشأ أن ندرس الخطوات التي من شأنها وضع أسس نجاح ترجمتها في واقعنا السياسيّ المعقّد. لم يعط القرار السياسيّ لنفسه، ولأسباب لا نملك المعطيات الكافية لتحليلها، مجالَ موضعة الخطّة وفق حاجات المجتمع اللبنانيّ ومستقبل لبنان كوطن، فأنتجنا برامج للتعليم، ولم نسأل أنفسنا بقدر كافٍ عن دورها في التنشئة الوطنيّة. ويؤسفني أن أقول إنّنا أخفقنا أيضًا

في قبول تقويم موضوعيّ لهذه البرامج يعيد إليها موقعها "السياسيّ البنّاء" (إن جاز التعبير)! يبدو لي أن السياسة في لبنان قد آثرت، وبحجّة دستوريّة مزعومة، أن تُحَيِّد النظام التربوي، عن دوره المجتمعيّ في إنشاء المواطن كجزء من وطن واحد.

المجتمع التربوي بين التفصيل والشموليّة

قد يبدو طرحي لهذا الأمر بعيدًا عن ما ستناقشونه في هذا اللقاء. الحقيقة أنني أرى الأمور بشكل مختلف. فمن حقكم طبعًا كباحثين، وكأساتذة أن تدخلوا في التفاصيل، وهذا أمر لا بدّ منه على كلّ حال. لكن ما وددت أن أشدّكم إليه هو العلاقة الجدليّة بين التفصيل والشموليّة، بين تفصيل مقاربةٍ تربويةٍ قائمةٍ على الكفايات، وشموليّة مقاربةٍ تربويّةٍ تنظر إلى الإنسان كجزء لا يتجزّأ من وضع مجتمعيّ محدّد في المكان، والزمان، والظروف الاجتماعيّة.

أخشى أن يعتمد مجتمعُنا التربويّ، الذي أنتم جزء هام منه، سياسة الهروب إلى الأمام وذلك بفصل دائم وعام بين التفاصيل التقنيّة والشموليّة النهاجيّة. أستدلّ على ذلك من معطيّات عديدة ليس أقلّها أهميّة:

١ - التسليم ببعض المعطيات الصادرة عن مراجع رسميّة دون الدخول في دراستها بشكل نقديّ، أكانت تنظيميّة، أو إداريّة، أو تربويّة.
٢ - التعامل مع النظريات التربويّة كمُطْلقات وعدم فحصها على ضوء الخلفيات الثقافيّة، والحضاريّة، والمجتمعيّة التي تشكّل قاعدتها الأساسيّة.
٣ - الخلط، المقصود أو غير المقصود، بين ما هو تعليمي Didactique، وما هو تأهيلي Formateur، وما هو تربويّ Pédagogique، وعدم النظر إلى تكاملها.
٤ - الخلط بين النهاجة التعلّميّة وما تتطلبه من تأهيل على صعيد القدرات الشخصيّة التي لا بدّ من تنميتها من خلال مواد المناهج كافة، وبين التقانات التعليميّة Techniques didactiques التي هي محدودة وقابلة للتبديل مع وضعيات التعلّم.
٥ - التوقّف عند المصطلحات وكأنّها مُطْلقات، عوض عن البحث عن طريقة لتوحيدها في المجتمع التربويّ اللبنانيّ انطلاقًا من رؤية واضحة لمقاربة تربويّة شاملة تهدف إلى تنشئة الإنسان المواطن.
٦ - النظر إلى المدرسة في معظم الأحيان كوحدة مستقلّة عن محيطها، يقتصر تفاعلها معه على الصعيد التنظيميّ ولا يصل إلى المستوى البنيويّ.
٧ - النظر إلى الكوادر العاملة في المدرسة، كما في الإدارة التربويّة، بروح وظيفيّة، بعيدًا عن فكرتيّ الامتهان والتكامل.

يمكنني دعم كلّ نقطة من هذه النقاط بالشواهد، لكننا لسنا الآن بصدد الدخول بنقاشات جانبيّة للدفاع عن موقع أو عن قرار. فما أقوله لا يعني أنه لم تُبْذل، هنا وهنالك، جهودٌ جَدّية للخروج من الوضع الراهن، وقد شهدت على الأقل أربعة مساعٍ لوضع استراتيجيّة تربويّة، ومسعيين لوضع أسس التمهين لعمل الطاقم التربوي، ومحاولتين لوضع أُسس تنظيم حديث للمدرسة الرسميّة. لكن المردود على أرض الواقع يبقى ضعيفًا، وليس من الطبيعيّ أن نقوّم الوضع التربويّ في لبنان بالنظر إلى بعض المؤسّسات ونتغاضى عن الرؤية العامة. والمؤتمر الذي نحن بصدده هو مناسبة لتخطي بعض الأمور السطحيّة والخوض في عمق المشاكل التربويّة في لبنان.

بعض الأفكار الختاميّة

في هذين اليومين سيتمّ التداول بعدد من الأفكار النظريّة حول المقاربة بالكفايات، وسترتكز النظريات التي ستَسُوقون على أعمال علميّة ظهرت هنا وهنالك في العالم، وخاصة في أوروبا الغربيّة. سيتمّ التداول أيضًا ببعض الأمثلة العمليّة لتوضيح عدّة أفكار. أتمنّى أن نقارب النقاشات بشكل جديد، وأن نسأل عن الأسباب، وعن السبل، ومدى ملاءمتها للبنان اليوم والغدّ. كما أتمنى أن نسأل عن الوحدة في النهاجة التي وراء هذه المقاربة قبل أن نسأل عن التطبيق التقني. لنسأل أيضًا عن التكامل المنهجيّ بين المواد قبل أن ننغلق في مستلزمات هذه المادة أو تلك. لنسأل عن الكوادر التي ستنفّذ هذه المقاربة، وعن وعيها لماهيتها ولدورها في تنشئة المتعلّم ككلّ. أخيرًا وليس آخرًا، لنسأل عن علاقة هذه المقاربة بالواقع الاجتماعيّ ووعي المجتمع التربويّ وغير التربويّ لمفهوم التنشئة.

أيّها الزملاء الكرام،

أنا لست متشائمًا كما يمكن أن يتصوّر البعض بعد هذا الكلام. بل على العكس أنا أدعو لثورة على النظام التربويّ القائم في لبنان، ابتداءًا مما هو قائم في الجامعات وصولاً إلى كلّ مؤسّسة تربويّة أو تُعْنى بالتربية في وجه من وجوه نشاطاتها. من يدعو إلى الثورة يكون متفائلاً في العمق لأنه يؤمن بقدرة الإنسان على الارتقاء. مضت أجيال من المجاهدين في سبيل التربية، وتركوا هنا وهنالك بصمات ناصعة، لم تستطع، حتى المحدلة السياسة، محو آثارها. كلّنا أمل بأنّ الجيل التربويّ الطالع، سيعي أن لبنان قادر على أن يصيغ خصوصيّة تربويّة يستوردها العالم منه وليس العكس. أملي أن يكون عندنا ما يكفي من الفكر النقدي، للاطلاع على كلّ ما يأتينا من الآخرين فنفحصه لنتمسّك بما هو حسن فيه ومناسب لوضعنا؛ وأن يكون عندنا ما يكفي من العلم والمبادرة لنقدم لهذا الوطن ما يستحقّه جيله الطالع من خلال جهد بحثيّ أصيل، نحن بأشدّ الحاجة إليه.

والسلام.